(٢)

ضياع الحلم

oberkan.com

obeikan.com

الاعتقاد **ألما بعد ألفى** بأن أمريكا أصبحت قريبة من تحقيق مملكة الرّب على الأرض لم يعد نزعة سائدة فى النظرة الرؤيوية الأمريكية رغم أن بقيةً من هذا التراث ظلت موجودة فى مقولات ويلسون السياسية وفى العقيدة الاقتصادية الليبرالية الجديدة. وقد ظهرت عقيدة رؤيوية جديدة وهى العقيدة المعروفة **بالما قبل ألفية** ـ premillennialism والتى تعرف أحيانًا **بالتدبيرية الإلهية** (أى التدبير الإلهى لشئون العالم dispensationalism) ـ لدى البروتستانتية الإيڤانجليكية evangelical الأمريكية، وذلك منذ الحرب الأهلية الأمريكية. هذه الرؤية الإيمانية الجديدة للدين الرؤيوى لها منظور أشد ظلمة بكثير لتاريخ أمريكا وكوكب الأرض. فالما قبل ألفيين يعتقدون أنهم يعيشون فى آخر الزمان، وهى فترة تنمو فيها الفوضى ـ انعدام القانون ـ والحروب المروّعة التى تهدد باستئصال الحياة البشرية على ظهر الأرض. فلن يعود المسيح إلاّ بعد هذه الأحداث المروّعة ليبدأ فى حكم العالم لمدّة ألف عام ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ يعمها السّلام، ويعتقد القائلون بالعقيدة الألفية أن سفر الرؤيا ليوحنا قد تنبّأ بهذا. ويعتقد القائلون بالعقيدة ألما قبل ألفية أيضًا أنَّ المؤمنين الحقيقيين «سيختطفون» أو أنَّ الله «سينتزعهم» من الأرض قبل حدوث المحنة أو «الضيقة العظيمة ـ Tribulation» ولا يُبقى على ظاهر الأرض إلاّ من قُدِّر لهم مواجهة الرعب ونهاية الزمان.

لقى انتشار فكرة ألما قبل ألفية فى أمريكا فى القرن العشرين دعمًا بسبب ضياع حلم مؤسسى الكومنولث الليبرالى الذى تحكم فيه المجتمعات نفسها بنفسها. لقد تلاشى الحلم بسبب الدمار المروّع للحرب الأهلية الأمريكية(*) وما تلا ذلك من ظهور الشركات المساهمة العملاقة الأحادية [التى تنفض من السوق المنافسين الآخرين ـ المترجم]

(*) استمرت حوالى ست سنوات، قتل فيها حوالى ستمائة ألف أمريكى، وكان إجمالى تعداد أمريكا ذلك الوقت أقل قليلاً من ٣٠ مليونًا، ويعنى هذا أنه من بين الرجال الذين فى سن القتال، قتل أكثر من ١ من بين كل عشرة ـ المترجم.

والحكومة الفيدرالية التى يزداد سلطانها من منتصف القرن التاسع عشر[١] . فالأمريكيون يشاركون أكثر من أى شعب فى العالم (باستثناء سويسرا) فى الانتخابات المحلية والإقليمية الديمقراطية ـ فهم ينتخبون العمد، والنواب العموميين والمحافظين والممثلين لكل ولاية، كذلك نواب الكونجرس الفيدرالى بمجلسيه والرئيس. هذا المدى الواسع من النشاط الديمقراطى على المستوى المحلى ومستوى الولايات والمستوى الوطنى العام، واكبه تعدّد غير عادى فى المؤسسات (أو التنظيمات) الدينية والروابط المحلية فى المدن الصغيرة والأحياء والمجاورات. الحد الذى تزدهر فيه ثقافة الديمقراطية والاتجاه التطوّعى هو دليل على ازدهار النموذج المثالى الأمريكى الأصلى للقاءات المفتوحة، التى تُدبِّر فيها المجتمعات أمورها أحسن تدبير. لكن استمرار هذه الثقافة ومؤازرتها قلبيًا أصبح مهددًا بشكل متزايد[٢] ، منذ استبدت الثورة الصناعية الأكثر ميلاً للمركزية ولمؤسسات الأعمال الكبرى، بهذه الرؤية الديمقراطية الباكرة.

النموذج الأمريكى الباكر للحكومة المثالية، يقوم على فرضية أنَّ الدولة تحتاج حكومة صغيرة، باعتبار أن الأفراد والمجتمعات المحلية كانت ـ من خلال تأثير الكنائس ـ فى الغالب مستقيمة وفعالة ـ تعتمد على نفسها وتحكم نفسها بنفسها[٣]، لكن ظهور الاقتصاد الصناعى والرأسمالية المركنتلية أوجد نمطًا جماعيًا جديدًا للحياة الاجتماعية وللحكم، مما كان يعنى أن البشر عامةً، والأمريكيين منهم خاصة، وجدوا أنفسهم أسرى سوق اقتصادى جعل منهم مجتمعًا واحدًا. وجود هذا الشكل الاقتصادى الجمعى الجديد ساعد ـ ومكّن ـ على ظهور دولة وطنية nation - state أكثر قوة، حيث أصبحت النخب الحاكمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمؤسسات الأعمال الكبرى. فى البداية كانت هذه المؤسسات مقيّدة بالطبيعة الديمقراطية لقانون الشركات الأمريكى الذى ظهر فى وقت باكر فى التاريخ الأمريكى، لكن سرعان ما أصبح لهذه المؤسسات الكبرى سلطة على المجتمعات التى كانت فى الأصل تتحكم فى أسهمها.

لقد مُنحت هذه الشركات والمؤسسات حقوقًا قانونية من خلال سلسلة من الأحكام القضائية فى منتصف القرن التاسع عشر، مكّنتها من فرض سيطرتها على رغبات مجالس المدن وعلى المواطنين[٤].

وكان لتطور فكرة أن أمريكا هى السوق الاقتصادى الوحيد، ورأسمالية المؤسسات الأمريكية لها جذور ـ أيضًا ـ فى تراث المستوطنين الأمريكيين الأوائل. فقد كان تراث

البيوريتانز السياسى والدينى القائم على اعتماد الفرد على نفسه وعلى التجمعات [الدينية] كوسيلة لتحقيق الديمقراطية والحكم الذاتى ـ كان هذا التراث يسير جنبًا إلى جنب مع تراث الرأسمالية المركنتيلية الذى كان شكله الأول فى أمريكا ممثلاً فى اقتصاد الزراعة بين سكان ڤيرچينيا بفكرتهم الأرستقراطية عن المجتمع. كانت ڤرچينيا منذ بدايتها ـ على العكس من نيو إنجلاند ـ مجتمعًا طبقيًا بدرجة عالية، حيث كان ملاّك الأراضى قليلين، بينما كانت الأكثرية من الفقراء البيض ومن السود المسترقّين.

وكما أظهر داڤيد فيشر فإن التناقض بين ڤيرچينيا ونيو إنجلاند يعكس الأصول المختلفة للمستوطنين فى هاتين المنطقتين [٥]. فالبيوريتانز الذين استقروا فى البداية فيما يعرف الآن باسم نيو إنجلاند، معظمهم انطلقوا من التراث الخلافى فى شمال انجلترا وغربها، وكانوا ديمقراطيين ذوى توجّه مساواتى، لكن كثيرين من الڤيرچينيين كانوا ملكيِّين أرستقراطيين، أنشأوا مجتمعًا عميقًا فى طبقتيه على نسق التنظيم الإنجليزى، مجتمعًا كان على قمته الطبقة المالكة للأراضى، ومن هؤلاء كان على الجمهورية الناشئة أن تختار رؤساء بمن فيهم واشنطن، وجيفرسون، وفى ڤيرچينيا ـ على عكس الحال فى نيو إنجلاند ـ كانت المشاركة السياسية مقصورة على أصحاب الممتلكات والأراضى، وهذا ما ينطبق على ما كان عليه الحال فى جنوب انجلترا حيث تعود أصول معظم الڤيرچينيين. وكانت الحرية بالنسبة لمعظم الڤيرچينيين تعنى القدرة على الحكم، وكان هذا هو المفهوم نفسه الذى لدى الأرستقراطية الإنجليزية، وكان النموذج المثالى السياسى للڤيرچينيين هو ما أسماه فيشر «الحرية المسيطرة ـ hegemonic Liberty»[٦]. وكانت نتيجتها الطبيعية من الناحية الاجتماعية هى الرّق الذى هو حالة طبيعية يمكن أن يقع فيها حتى الإنجليزى إن ساقه حظه السيئ إلى ذلك، أو كان استرقاقه وفاءً لمديونية، وهذا المعتقد وافق عليه الفيلسوف الإنجليزى چون لوك الذى دلّل على أن كل الموارد الطبيعية ـ بما فى ذلك أجساد البشر ـ يمكن أن تكون تابعة لقانون الملكية الخاصّة، تمامًا كما قد يسوق سوء الحظ شخصًا إلى فقدانه مزرعته، فهو أيضًا ـ للسبب نفسه ـ قد يفقد حريته. كانت نتيجة الحرب الأمريكية الأهلية بين الشمال والجنوب هى إلغاء الرق، لكن عمق الطبقية الاجتماعية فى المجتمع الجنوبى ـ عرقيًا واقتصاديًا – لم يتم استئصاله بالحرب، بل وظل ـ حقيقة ـ مستمرًا إلى أيامنا هذه.

فالتراث الجمهورى الأمريكى هو مزاج من الاتجاهات الارستقراطية الملكية والمساواتية البيوريتانية، ولا بد من قراءة إعلان الاستقلال والدستور الأمريكى بوصفهما محاولة للمزاوجة بين هذين التراثين المتنافسين. وكانت النتيجة ـ فى الجوهر ـ دستور أكّد على الحق فى الحرية السياسية، لكن هذا الحق بقى مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالملكيّة. لم يؤسس الآباء المؤسسون جمهورية تؤيد الحرية، يُتاح فيها للعبيد أو الخَدَم المتعاقدين أن يتمردوا على سادتهم ويطالبوا بحرية يزعمونها لأنفسهم. على العكس ـ كما يدلّل ريتشارد هوفستادتر ـ فإن الدستور ـ رغم افتتاحيته ذات الطبيعة المساواتية ـ قد ضمن حريات للملاّك أكثر مما ضمنه للفقراء، بما فى ذلك «التحرر من اللايقينيات المالية ومن الاختلالات فى العملة، ومن الحرب التجارية بين الولايات، ومن التمييز الاقتصادى الذى تمارسه الحكومات الأجنبية الأكثر قوة، ومن الهجوم على الطبقة الدّائنة، ومن الهجوم على الممتلكات ومن العصيان المسلّح العام» [٧]. كانت الحرية تُفهم ـ فى الأساس ـ على أنها حرية التملك وحرية التمتع بثمار الملكية. ولم يكن التأثير على الحكومة فى العملية السياسية قائما على أساس ديمقراطى، وإنما على أساس كمّ الممتلكات التى يمتلكها شخص أو مجموعة أشخاص. وتميز چورچ واشنطن، وتوماس چيفرسون بتخوفهما من العامة التى ليس لديها أراض أو ممتلكات. ومن ثمَّ كان تدشين حكومة دستورية متوازنة لم تقدم حلاً مرضيًا للصراع بين الفقراء والأغنياء، هذا الصراع الذى لا يزال يميز جوهر مشكلة السياسات الأمريكية الحديثة حتى أيامنا هذه.

***

اللاهوت الجديد للملكية الخاصّة

ما هى الجذور الفلسفية والدينية لهذه الجمهوريّاتيّة القائمة على الملكية ومؤسسات الأعمال الكبيرة؟ أهذا مهم ذو مغزى مثله فى ذلك مثل البيوريتانية فى تشكيل التاريخ المقدّس لأمريكا؟ البراهين تؤكّد هذا. فچون لوك ـ الرحالة والفيلسوف الذى عاش خارج بلاده ـ يقدم لنا النص النموذجى لطبيعة الملكية والحرية التى اعتمدت عليها

منذ ذلك الحين. لقد جَالَ لوك فى أمريكا وطوّف وقضى كثيراً من وقته فى ملاحظة النضال المتنامى بين المستوطنين الإنجليز وأهل البلاد الأصليين للاستيلاء على الأرض (أرض الهنود الحمر). ومن ثمّ خصص لوك مساحة كبيرة فى كتاباته للحكم والسياسات للدفاع عن سياسة المستوطنين إزاء الأرض، خاصة القانون الاستعمارى الذى زعم التاج بمقتضاه ملكية الأرض المستعمرة وتحويل ملكيتها للمستوطنين. وبينما اعتقد لوك أن الهنود لهم الحق فى الصيد، والنباتات البرِّية بدون تدخل إنسانى، فإنه يحاجج بأن أن التُربة نفسها ليست ملكًا للهنود، لأنهم غير متحضّرين وتنقصهم الصناعة؛ لذا فقد فشلوا فى زراعة الأرض، فالأرض إذن لمن استطاعوا فلاحتها بالعمل. وكان تبرير لوك لذلك لاهوتيًا.

لقد حاجج بأن الله رغم أنه أعطى الدنيا لكل البشر مشاعًا، إلا أنّ الله أيضًا أمر الإنسان أن يعمل فى الأرض، وبالتالى فليس من حق أحد أن يُلحق أرضًا بملكيته ويستحوذ عليها إلا إذا كان مطيعًا لأمر الله، فضم الأرض وحرثها وبذرها [٨]. لم يكن قصْد الله أبدًا أن تبقى الأرض مشاعًا، وبالتالى غير مزروعة. وبهذه الطريقة، فسّر لوك الفقرة الواردة فى سفر التكوين (١/ ٢٨) «واملأوا الأرض وأخضعوها» باعتبارها أساس الزعم الاستعمارى بالسيطرة على جزء خاص من الأرض، واستئصال السكان الأصليين ودحض دعواهم بامتلاك هذه الأرض. فالإنجليزى حاز حق ملكيته على هذه الأرض بزراعتها وإقامة سور حولها؛ لأن ذلك يضيف قيمة للأرض، وليحيل ما أسْماه لوك «الأرض الخراب» إلى موارد منتجة لاقتصاد المستعمرة. فالأرض المملوكة على المشاع ـ كما كان الحال لدى السكان الأصليين ـ إنما هى أرض غير منتجة وغير ذات قيمة، ولا يمكن بالتالى القول ـ عن حق ـ إنها ملك لأحد. فالهنود ربما نعموا بثروة الأرض، لكنهم فشلوا ـ لنقص الحضارة والتعليم لديهم ـ فى استخدامها بشكل معقول، وبالتالى لم يطوّروها. و من هنا فإن الإنجليز ـ بما لديهم من أساليب صناعية ـ هم الملاّك الحقيقيون للأرض والجديرون بملكيتها وفق إرادة الله، ووفق القانون البشرى أيضًا. وعلى هذا فقد سيطر الإنجليز على العالم الجديد وخلّصوه بمهاراتهم الزراعية، بينما ضمه الإسبان إليهم بالغزو فقط. وبهذه الطريقة فى التفكير أعطى لوك أساسًا

لاهوتيًا للفكرة البيوريتانية التى مؤدّاها أنهم دخلوا فى الميراث الألفى لأبناء النور، ليعيدوا تكوين المملكة «مملكة الرب ـ the kingdom» على أرض أمريكا العذراء.

وقدَّم لوك أيضًا أول أساس لاهوتى لجوهر المعتقدات الأمريكية عن حرية الفرد، والحقوق القائمة على أساس الملكية، والحد الأدنى من التدخل الحكومى. فالحكم والقانون والسياسات قد جعلها الله لا لشىء إلا للدفاع عن الفرد ليستمتع ـ وهو حر ـ بممتلكاته والتوظيف الحر لتطوير عمله: «لنفهم حق السلطة السياسية ونستخلصها من أصولها، لا بد أن نضع فى اعتبارنا أن حرية الناس المطلقة ـ بحكم طبيعة الأشياء ـ هى فى تنظيم شئونهم والتصرف فى ممتلكاتهم وذواتهم على نحو ما هو ملائم لهم فى حدود قانون الطبيعة، دون استئذان أحد أو بناءً على إرادة أحد»[٩].

فجوهر العمل السياسى ليس العمل لصالح المجموع كما تصوّر فى وقت باكر القس الإيفانجليكى والمنظّر السياسى ريتشارد هوكر، وكما فهم أيضًا الهنود، ومارسوا من خلال عاداتهم فى حيازة الأرض على المُشاع، وإنما جوهر العمل السياسى هو حماية الملكية الفردية وحماية حق استغلالها، ومنع الآخرين من أن يتدخلوا فيها. «للطبيعة قانون طبيعى يحكمها. قانون مُلزم لكل أحد: وعقل ـ منطق ـ يمثل هذا القانون، يعلمنا جميعًا نحن البشر إذا رجعنا إليه أننا ما دمنا جميعًا متساوين ومستقلين، فلا يجب أن يضر أحدنا الآخر فى حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته»[١٠].

ولاحظ لوك أن الهنود هم الذين يهددون الإنجليزى فى صناعته وممتلكاته وليس العكس. وعلى هذا فما كانت تحتاجه أمريكا بصفة رئيسية هو حكومة تدافع عن هذا الإنجليزى وممتلكاته ممن يريدون سلبه إيّاها[١١].

يقف لوك فى تناوله لقضيْتى الملكية والسياسات موقفًا مناقضًا بشكل ملحوظ للتراث المسيحى الأرثوذكسى الذى تبنَّى وجهة النظر الإسرائيلية القديمة التى مؤدّاها أنّ استغلال الأرض أو الممتلكات مشروط باحترام الالتزامات والواجبات المكلف بها من الله، والتى تشتمل على قوانين (شرائع) أخلاقية تقلل من عبودية الدَّيْن ـ debt slvery وعدم المساواة بين شعب الله.

وبالنسبة لتوما الأكوينى، فإن سرقة الفقير الذى هدّه الجوع من الممتلكات الخاصّة للغنى لا تعد خرقًا لأحد الوصايا العشر (لا تسرق)[١٢] لكن المستوطنين الأمريكيين الذين قاوموا إحكام الكنيسة قبضتها على العبادة والعقيدة رفضوا أيضًا القيود على الممتلكات والثروة. ربما انزعج لوك من النتائج الأخلاقية للجشع والاستحواذ، لكن مقولاته الأساسية الما بعد المسيحية عن سياسة الملكية كانت حاسمة فى ظهور النظام السياسى فى أمريكا[١٣].

كانت حجة لوك القائلة بأن الله لا يعطى ثمار الأرض لكل الناس على سواء، وإنما يميز العاملين الجادين الكادين وأصحاب المشروعات على الكسالى والمتراخين، كانت هذه الحجة إلهامًا لا للحرب ضد الهنود فحسب، وإنما أيضًا إلهامًا للحرب الثورية ضد التاج البريطانى الذى استخدم ما تمتع به من امتيازات أكثر مما استخدم العمل الجاد المجهد والصناعة، ليربح من وراء عمل الآخرين.

وطالما أن المستوطنين الأمريكيين رفضوا وصاية الكنيسة وحكم ملوك أوروبا الذين تطلعوا للكنيسة طلبًا للشرعية، فإنهم لم يكونوا متلهفين بعد الثورة الأمريكية على إعادة تكوين حكومة قويّة، فقد كانت مصلحتهم فى المقام الأوّل هى فى قيام حكومة تحميهم من الهنود، وتمكنهم من استثمار عوائد أعمالهم.

كانت الثورة الأمريكية محاولةً لفك العالم الجديد من العالم القديم، وتأكيد شكل جديد من السلطة السياسية لا تدّعى نوعًا من الحكم المطلق متجاوز الحد وهو ما ميّز ميلاد الدولة الوطنية الأوروبية. لقد كان السبب الأساسى لرحيل البيوريتانز وغيرهم من المنشقين وتوجههم نحو المحيط يعبرونه ليؤسسوا مجتمعًا جديدًا غرب الأطلنطى، هو التخلص من اضطهاد حكام أوروبا الجُدد. وتبعهم ملايين ممن فقدوا مصادر رزقهم فى الأراضى المنهوبة الشاسعة للأرستقراطية القوية الجديدة [فى أوروبا]. لم تكن الثورة الأمريكية تقاتل عن أمور لاهوتية، ولم يكن القصد من الحرب هو جلب الحرية أو الديمقراطية لأهل البلاد أو لما لا يحصى من الخدم، وعبيد نبلاء بوسطن والأرستقراطيين ملاك المزارع فى الجنوب مثل چورج واشنطن. لا، فالحرب كانت ضد الضرائب، خاصة تلك التى فرضتها بريطانيا على الواردات من المنتجات إلى المستعمرة

مثل الشاى، وقد انتهت فى قاع البحر فى ميناء بوسطن فى بداية الثورة. هذه الضرائب كانت تُدفع للجيوش التى تحتفظ بها بريطانيا فى المستعمرات الأمريكية للدفاع عن المستوطنين ضد الفرنسيين والإسپان. لكن ملاّك المزارع وكذلك الحضريين كانوا ساخطين لإلزامهم بدفع ضرائب على وارداتهم من مواد الترف الأوروپية ـ الشاى والملابس ذات الرسوم. . . إلخ ـ بينما الصادرات الأمريكية من الدخان والقطن كانت تباع فى أوروپا كمواد خام بربح لا يزيد إلا قليلاً على تكاليف الإنتاج.

كان ظهور حكومة أمريكية فيدرالية بعد الثورة يمثل المحاولة الأولى التى بذلها الأوروپيون لصياغة نموذج من السلطة السياسية يتجاوز النمط الملكى. هؤلاء الأوروپيون الذين سيرون أنفسهم بعد الحرب مع بريطانيا لأول مرّة «أمريكيين». وبسبب النموذج الذى رسمه لوك بالتأكيد على حقوق الملكية، وجدنا الفلاحين فى الدستور الفيدرالى يتطلعون إلى تأكيد سلطة الدولة وشرعية استخدامها للعنف. لقد كانت الجمهورية الأمريكية ـ فى الأساس ـ جمهورية مُلاّك، وأعطى إخضاع الطبيعة وتذليلها للإنسان التبرير الرئيسى لحق المالك فى استثمار ممتلكاته بالطريقة التى يراها باستقلال ذاتى.

وبطبيعة الحال فإن الممتلكات وحدها لا تُقدم الأساس لمجتمع فاضل منظَّم من النوع الذى تخيله الآباء المؤسسون. لقد كان ما تحتاجه أمريكا ـ وهو على القدر نفسه من الأهمية ـ هو بعض الخطط لتبيان كيفية ارتباط المستوطنين بمشروع يشتركون فيه لخلق مجتمع فاضل منظم من النوع الذى كان قد تخيَّله جوناثان إدواردز وغيره من القائلين بالفكر الما بعد ألفى ـ فكما رأينا فإن الفكر الما بعد ألفى يجعل أمريكا مسئولة عن تاريخ قُدسى، نهايته ستكون ألف سنة من حكم يسوده السلام ويعود فيه المسيح. لكن الجمهوريين الرّبوبيين(*) مثل ماديسون وچيفرسون، يرفضون فكرة تخليص المجتمع الإنسانى من الخطيئة الأصلية من خلال مخلّص هو يسوع المسيح.

إنهم يعتقدون فى جمهورية مبنية على سياسات قوامها الحرية والعقل، وسكانها فاضلون عقلاء بفضل التعليم والتنشئة. وما يقف فى سبيل تحقيق هذه الجمهوريات

(*) المقصود بالربى، فى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، من يؤمن بإله للكون، ولكن ليس هو كما جاء فى العهد القديم، ولا العهد الجديد ـ المترجم.

الحرّة ليس الخطيئة الأصلية، وإنما طغيان سلطان الدولة طغيانًا مفرطًا، سواء اتخذ هذا الطغيان المفرط شكلاً ملكيًا أو بيروقراطيًا، وكذلك الاضطهاد على أيدى قوى أو إمبراطوريات خارجية (١٤). حول مثل هذه الأفكار وجدت أن المسيحية البيوريتانية والجمهورية التنويرية قضية مشتركة فى الثورة الأمريكية، وفى بناء التقاليد الجمهورية الأمريكية.

طور هذان التراثان فكرة استقلالية الفرد الإنسان فى تحقيق أمريكا أفضل، وكلاهما استلهم إيجاد مجتمع يوتوبى فى العالم الجديد، وكلاهما شارك فى الاعتقاد فى ضرورة المعارضة العميقة، ومن ثم الصراع والنضال لتحقيق هذا المشروع اليوتوبى.

* * *

دين أمريكا

أدت المزاوجة بين الأفكار الجمهورية التى تعوّل على الملكية وتراث المسيحية البيوريتانية فى القرن الثامن عشر إلى ما أسماه مارك نول «بالتركيبة الأمريكية» المكونة من الدين البروتستانتى الإيڤانجليكى والأيديولوچيا السياسية الجمهورية الفكر الأخلاقى العام (١٥).

لقد راح القسس الإيڤانجليكيون بعد الحرب الأهلية يبحثون عن نموذج جديد لمجتمع ليحل محل الفكرة البيوريتانية التقليدية عن الكنيسة، ووجدوا هذا البديل فى المشروع الوطنى العام الممثل فى «الألفية المدنية» أو «الجمهورية المسيحية» (١٦).

لقد كانت الرذيلة والفضيلة محكَّات هذه الأفكار الجمهورية الدينية، وأصبحت الإيڤانجليكية هى الدين الوطنى السائد للجمهورية الناشئة. تضمنت هذه الشراكة عناقًا دينيًا لعقيدة الحرية، وعقيدة أمريكا بوصفها «أرض الحرية». تجلّى ذلك فى السياسات والاقتصاد والعلم والدين.

تكونت الأفكار الجمهورية الأمريكية من فكرتين: مقاومة إساءة استخدام السلطة السياسية، «واعتقاد يكاد يكون مسيانيًا» (مرتبط بعودة المسيح) فى فوائد الحرية (١٧). وارتبط بهاتين الفكرتين حديث عن الحاكم الفاضل، والمواطن الصالح، وضرورة تقييد سلطان الحكومة عن طريق ضبط الفصل بين السلطات وموازنته فى الدستور

الأمريكى، وعن طريق الفضائل التى يتحلَّى بها حكام الولايات، وعلى النحو نفسه فإن الدولة لا يمكنها أن تؤدى إلى ازدهار إنسانى إلاّ عندما تتيح الحرية لمواطنيها ليستثمروا ممتلكاتهم، وليعيشوا حياة فاضلة وسعيدة. هنا يأتى مكان الكنيسة وإمكانية دورها فى المشروع الجمهورى؛ لأن المواطنين سيتعودون الفضيلة ويتدربون على ممارستها فى تجمعاتهم الدينية، أكد الواعظ عزرا ستايلز فى نهاية الثورة الأمريكية على أن «الدين الحقيقى» و«نشر الفضيلة» لازمان لإتمام النظام الحكومى الجديد «ولتحقيق السعادة الدنيوية للناس» [١٨].

وقد لاحظ النقّاد اللاهوتيون للأفكار الجمهورية أنَّ الدِّين المصاحب لهذه الأفكار لم يعد هو الأورثوذكسية المسيحية؛ لأن الأفكار الجمهورية تتطلب خضوع المسيحية لمشروع إنسانى ذى نظام سياسى وحرية شخصية وملكية خاصة واعتقاد فى تقدم اجتماعى وأخلاقى، اعتقاداً يفوق الاعتقاد فى الخَلاَص الإلهى، وكان من نتيجة ذلك ظهور دين مدنى أصبح فيه الله صفراً. لقد أصبح إلها بعيداً تقترب أغراضه من قيم الجمهورية[١٩]. ورغم أن الجمهورية كان يمكنها تدبير مساحة للدين، إلاّ أنها فضّلت ديناً لا يتحدى دعائم أساساتها. فكما لاحظ ديترش بونهوفر خلال إقامته فى أمريكا فى ثلاثينيات القرن العشرين، أن الحرية أو الإمكانية التى أعطتها الجمهورية الأمريكية للدين، كانت إعلانًا يمثل النموذج الأمريكى للحرية، وكان هذا شكلاً تقليديًا لما أسماه فى وقت لاحق «النعمة الزهيدة». لكنَّ ضرورة أن يعطى العالم الكنيسة حرّيتها، كان يعنى بالنسبة لبونهوفر هرطقة تُناظر الهرطقة النازيَّة التى طلبت من الكنيسة أن تتمسك بالآرية وتعترف بالفوهرر. وبالنسبة لبونهوفر فإن حرية الكنيسة التى تمكنها من مقاومة الطغيان لم تُعطها لها السلطة السياسية أو «العالم» وإنما الأقرب للصحة أنها هبة من الله ونتيجة التبشير بعالم الله [٢٠].

وثمة عنصر آخر محورى فى تحالف البروتستانتية الأمريكية والأفكار الجمهورية كان ممثلاً فى الدعوة إلى العقل والتجربة باعتبارهما محكًا للفهم العام والحكمة السياسية والعلمية. لقد كان الاعتقاد فى أن العقل والتجربة ـ بوصفهما مناقضين للتراث (التقاليد) والوحى والدين ـ قد يقودان البشرية إلى مستقبل أكثر سلامًا وأكثر عدلاً. لقد كان هذا الفكر محوريًا فى التراث الجمهورى (التقاليد الجمهورية) وفلسفة التنوير اللتين انجذب إليهما هذا التحالف الآنف ذكره. لقد زاد تبنّى الأمريكيين فى

القرن الثامن عشر لنظرة بيكون للعقل حيث يقوم الحكم على الحقيقة على ملاحظة نتائج التجارب. لم يعد مستقبل البشرية مقدَّرًا بالتعويل على الكتاب المقدس والتراث ـ التقاليد المتوارثة ـ فالدولة القائمة على الأفكار الجمهورية الربوبية ستضع التجربة فى قلب فهمها لتقدّم أمريكا لتصبح أوّل مجتمع ملتزم دستوريًا بسعادة مواطنيه. و على النحو نفسه فإن الأفكار الجمهورية التقدمية بدأت فى تحدى المعتقد القائل بالعصر الألفى بمعناه الحرفى [٢١].

لقد قرأ الفيلسوف الألمانى هيجل هذا التحول الإنسانى فى الإيمان الأمريكى، على أنه أوّل ازدهار كامل لدين التجسُّد Incarnation (تجسد الإله)، فبتجسّد الله فى المسيح أصبح تابعًا للزمان والمكان وعلى هذا أصبح حقيقة قائمة بدلاً من مثالية مجردة. وفق ما ذهب إليه هيجل، عنى التجسّد أنه لا شىء فى الكون أكثر قداسة من البشر، وعلى هذا فأمريكا بوصفها أوّل أمّة تؤكد قُدسية التجربة البشرية، وأول أمة لا ذاكرة لها، أو لا بقية لديها من ماض بشرى بدائى، فهى بهذا حاملة للروح الإنسانية. كانت أمريكا ـ على هذا ـ «هى دولة المستقبل» [٢٢].

وكما يحاجج ريتشارد رورتى، فإن هيجل ـ هنا ـ يميل إلى تشخيص البراجماتية الأمريكية التقدمية المهتمة فى الأساس بالمستقبل، والاعتقاد بتفوق الإمكانات البشرية على أية فكرة مجرّدة أو نظرية، بما فى ذلك الله ذاته [٢٣]. فبالنسبة للبراجماتيين مثل جون ديوى كانت أمريكا عظيمة، لأنها قد تخلَّت عند صياغة مبادئ تأسيسها، وعند ممارسة نظم الحكم فيها عن أية دعاو أو رغبات فى صياغة الحياة على الأرض على وفق حقائق مجردة أو حقائق سماوية. انطلاقًا من هذا التحرر من الحقيقة المفروضة من الخارج، ظهر الإيمان بتفرّد الديمقراطية الأمريكية بوصفها النظام الوحيد الذى لا «يقوم على فكرة أن التجربة لا بد أن تتعرض فى مرحلة أو أخرى لتحكم من الخارج: من مرجعية خارج عملية الممارسة» [٢٤].

حلم أمريكا بهذا المنظور التقدمى البراجماتى هو الحلم بحريتها فى خلق كيانها بنفسها وفى تشكيل قَدَرها بنفسها. هذا القَدَر أخذ شكله فى ظهور الدولة الجمهورية التى وضعت نُصب عينيها فى الأساس أن تسمح للأفراد النشيطين (الفعّالية) أن يهتموا

بحياتهم بأنفسهم وأن يضبطوها بأنفسهم دون عائق من أية مؤسسة أو تراث أو حواجز أو طبقة [٢٥]. هذا ما يزال يعنيه كثيرون من الأمريكيين عندما يتحدثون عن «الحرية».

***

ثورة السوق والإحياء الإيڤانجليكى

فى القرن التاسع عشر حدث على الساحل الأمريكى الشرقى ما أسماه شارلز سيلرز بالثورة الثانية ـ «ثورة السّوق». (رغم أن هذه الثورة كانت تنتشر بالتدريج غربًا خلال الداخل الزراعى). كوّنت هذه الثورة الاقتصادية أوّل مؤسسة على منطقة شاسعة مكوّنة من كيانات سياسية كثيرة متعدّدة مرتبطة فى فيدرالية ناشئة، ومن سوق مشتركة بين الولايات يتميز بمؤشرات تقليدية للعلاقات الرأسمالية: تقسيم العمل، والتجارة من أجل تحقيق مزايا تنافسيّة بين المدن والأقاليم المتباعدة جغرافيًا، والتى تخصّصت فى منتجات مختلفة، وظهور اقتصاد المحاصيل النقديّة ـ خاصة ما يتعلق بزراعة القطن وتطوير صناعة المنسوجات ـ هذه السياسة الاقتصادية الجديدة للولايات المتحدة كانت منتجة بشكل هائل. فعلى سبيل المثال ارتفعت قيمة صادرات القطن من ٢٣ مليون دولار إلى ١٢٤ مليون دولار فى خلال عقود قليلة من القرن التاسع عشر[٢٦]. وساعد تطور البنك الوطنى والشركات المساهمة ونظام الكمبيالات والحوالات هذا الاعتقاد الناشئ [٢٧]. وقد قدم ذلك نوعًا جديدًا من الاقتصاد السياسى فى الداخل، جعل ـ بشكل متزايد ـ الاهتمام بمصالح الشركات والمؤسسات المالية يفوق الاهتمام باقتصاد الحائزين الصغار القديم، الذى كان يعتمد عليه غالب المستوطنين.

وقد كانت هناك مقاومة دينية للازدهار السريع للسوق الرأسمالى ـ خاصة من قبل الإيڤانجليكية فى المناطق الريفية، تلك الإيڤانجليكية التى تعكس قيم الاستقلال واقتصاد المقايضة للفلاح ذى الملكية الصغيرة، والمكتفى ذاتيا. لكن، وفى الوقت نفسه، وكما يقول سيلرز، ومن قبله ماكس ڤيبر، فقد قدمت الكالڤينية الأمريكية «الوسيط الروحى» لتحويل أمريكا إلى مجتمع رأسمالى «يقدس العمل الدنيوى بوصفه واجبًا دينيًا، ويقدس الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة»[٢٩]. وثمة فارق دقيق بين

نول وكل من سيلز وڤيبر، فهو يلاحظ تناقضًا بين الطبقة البروتستانتية العليا والطبقة البروتستانتية الوسطى من ناحية، والطبقة البروتستانتية الدنيا من ناحية أخرى، فيما يتعلق بأمور المال والسوق، فالطبقتين العليا والوسطى تأخذان بعلاقات السوق والنقود الورقية، بينما الطبقة الدنيا لا تثق فى تكريس الثروة والمشروعات الاقتصادية الوطنية[٢٩].

يكمن الصراع الأيديولوچى حول طبيعة مؤسسات الأعمال فى قلب الحرب الأهلية. فقد كان الرّق مؤسَّسة محورية لاقتصاد المزارع الواسعة فى الجنوب، أما فى الشمال فقد كانت حرية حركة العامل ضرورية لظهور الرأسمالية الأمريكية النَّشطة القائمة على الصناعة. وهذا الصراع نفسه اتخذ أبعادًا دينية. فبينما رأى المنادون بإلغاء الرّق أن إلغاءه أمر مطلوب من الصَّالحين قبل إشراق فجر الألفيّة، رأى المترددون على الكنائس فى الجنوب استمرار الرّق وفرض قيود على سلطة الحكومة باعتبارهما مسألتين ضروريتين لمفهومهم للولاء لمثل الميثاق الأول[٣٠].

وكلما كانت الرأسمالية تنمو بسرعة، وتنمو منها شبكات الخطوط الحديدية التى مكّنت من انتقال التجارة عبر مسافات شاسعة، كلما ازدهرت ـ أيضًا ـ المسيحية البروتستانتية بنسب غير مسبوقة بانضمام أعداد كبيرة إلى الكنائس البروتسانتية، بنسب تصل إلى ضعف نسبة الزيادة السكانية[٣١]. وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت زيادة أعداد البروتستانت قد ارتبطت غالبًا باقتصاد السوق الجديد بمؤسساته النّشطة بما فيها البنك الوطنى وكثير من البنوك الأصغر، والشركات المساهمة، وأسواق الأسهم، وقطاعات تجارة التجزئة فى المدن الأمريكية، وما يرتبط بكل هذا من تطور شركات البريد. حقيقة إن كثيرًا من ملامح الدين الإيڤانجليكى قد ارتبطت بأنشطة السّوق.

وعلى هذا، مثلت الكتيبات والكتب الإيڤانجليكية أول سوق كبيرة للإعلام المطبوع (الميديا المطبوعة) متوقعة بزوغ ثقافة المستهلك، بينما رأت الإرساليات التبشيرية الإيڤانجليكية والوعاظ الإيڤانجليكيون فى تطوّر الأسواق وازدهارها سواء فى أمريكا أو خارجها أداة ممنوحة من الله لنشر الإنجيل ـ وبسرعة ـ فى كل أنحاء أمريكا وفيما وراء حدودها إلى الجنوب وعبر المحيط الهادى[٣٢].

وفى قلب الزواج الناشئ بين البروتستانتية الإيڤانجليكية والرأسمالية الأمريكية، كانت محوريّة الاختيار الفردى هى الهُويّة الإيڤانجليكية[٣٣].

نمت الإيڤانجليكية بسرعة ـ بوصفها دين الاختيار ـ إثر الثورة الأمريكية؛ لأنها كانت «أكثر قدرة على مواجهة احتياجات بشر من رجال ونساء ذوى عقول لا جذور فيها للمساواتية، من المؤسسات الكنسية الجامدة القائمة على معايير القرن الثامن عشر والقائمة على الإذعان، واحتكارات النخبة للأورثوذكسية»[٣٤].

لقد قدمت التجربة الدينية الإيڤانجليكية للفرد الإحساس «بالقوة والاستقرار الشخصى» و«احترام الذات» فى دوّامة التغيّر السريع الذى أحدثته الثورات السياسية والصناعية والاقتصادية فى القرنين الثامن والتاسع عشر: أفراد مفوَّضون بالسلطة على هذا النّحو كانوا أيضًا مفوّضين اجتماعيًا وسياسيًا ليؤكدوا سيادة جماهير العامة، وليشكلوا الثقافة فى نطاق مصالحهم.

وعلى هذا فقد أراد الإيڤانجليكيون فى القرن التاسع عشر كلا من الجمهورية والسوق محرَّرتين من الهيراركية التقليدية للكنيسة والدولة. بكلمات أخرى، كان لفك المؤسسة الدينية «religions disestablishment» نتائج سياسية واقتصادية، فقد كانت هناك رابطة ضمنية بين التحرر السياسى وحرية الدين، واعتناق اقتصاد السوق لدى الأمة الجديدة. أمَا وقد تمّ رفض التنظيمات الهيراركية الإكليركية الكنسيّة فى عباداتهم وعقائدهم وقراءاتهم للكتاب المقدس، فقد كان الإيڤانجليكيون ـ على النحو نفسه ـ معارضين للترتيبات الحكوميّة «للمجالات العامة التى عقدوا الآمال على تطوير دينهم فيها، كما كانوا مُهيَّئين لتفضيل أوضاع يكون فيها الأفراد قادرين على اختيار طريق الله بحرية»[٣٥]. وعلى نحو مناظر، فإنه إذا استطاعت الروح القُدُس أن تُرشد الفرد للاختيار الصحيح لطريق الله، عندئذ ـ وبالتأكيد ـ تكون هناك عمليات مماثلة فى الكيمياء الجديدة لاقتصاد السّوق. وعلى هذا أصبح اختيار العميل جزءًا من الإيمان الإيڤانجليكى.

ولقد استجاب الإيڤانجليكيون فى آخر القرن التاسع عشر فى أمريكا لظهور العالم الحديث ـ الدولة الأمة ذات السيادة، والسوق الاقتصادى الذى يوجهه العلم وتقوده الصناعة ـ بتخلّيهم عن كل أخلاقيات المسيحية التاريخية ليحلّوا محلها شكلاً من

أشكال الدين قلّت فيه الدعاوى الاجتماعية، مركزين على الحياة الداخلية «الباطنية ـ inner» للفرد المتديّن. لقد صنعوا فضيلة الضرورة necessity، واقترحوا ـ وفق كلمات الواعظ الأمريكى ذى الجماهير العريضة هنرى وارد بيشر ـ أنه «بينما تلقينا العلم على أيدى العلماء فى الحقيقة المتصلة بالطبيعة المحسوسة، وبينما نتلقى العلم على يد الاقتصاديين، ذلك العلم المرتبط بالطبيعة الاجتماعية، فإننا نحتاج أيضًا إلى رجل الدين المسيحى ليعلمنا ما لا يُرى»[٣٦]. فأمريكا المسيحية فى الرؤية الإيڤانجليكية كانت قد صنفت نوعًا من السلام بين الدين والحداثة. فقد كانت التقوى هى مفتاح الضمير الاجتماعى الإيڤانجليكى والتعاليم الاقتصادية، وكان النجاح فى الأعمال لا يشكل عائقًا أمام التقوى الإيڤانجليكية مادام حافظ رجل الأعمال على الأمانة والاستقامة، وعلى استخدام ثروته الكبيرة فى أعمال الخير[٣٧].

وعلى أية حال فبحلول أواخر القرن التاسع عشر، وُجدت توترات شديدة داخل هذا التحالف الجديد بين الإيڤانجليكية والحداثة. لقد ظهرت الحداثة فى الدين مع ميلاد الليبرالية اللاّهوتية الأمريكية التى سعى معتنقوها إلى إحداث توافق بين تعاليم الكتاب المقدس والعقائد المسيحية من ناحية والاكتشافات العلمية من ناحية أخرى. وقد أثار هذا هجومًا مضادًا من الإيڤانجليكيين الذين نشروا كتيباتهم المشهورة باسم «الأصول ـ Fundamentals» التى يؤكدون فيها **عصمة** الكتاب المقدس، وبالتالى صحة رواية الكتاب المقدس عن الخلْق(*) وعن العقائد المسيحية التقليدية الأخرى، كان ناشرو هذه الكتيبات بأن عالم أمريكا القرن التاسع عشر ينزلق بعيدًا عن نفوذ المسيحية الإصلاحية التى كانت قد أنجبت أمة جديدة من خلال الآباء الحُجّاج ـ Pilgrim Fathers» وأسستها «كمدينة فوق التل».

هذا الإحساس بعدم الارتياح مع أمريكا الحديثة الجديدة نما بسرعة فى الأعوام التى سبقت الحرب العظمى والأعوام التى أعقبتها، وشكل عودةً ـ على نطاق واسع ـ إلى حماسة الألفيَّة خلال الانهيار الاقتصادى الكبير فى عشرينيات القرن العشرين. لكن بدلا من أفكار ما بعد الألفية التى أكّدت على تقدم أمريكا المسيحية نحو الحكم الأرضى

(*) فى مقابل نظرية داروين ـ المترجم.
وصاحب ذلك المبيعات الهائلة لنسخة شارلز سكوفيلد لشرح الكتاب المقدس، وتعاليم القس الخمسينى إدوارد إيرڤنج، وتعاليم قائد الإخوان (Brethern leader) چون نيلسون داربى ـ المترجم.

للمسيح، فإن الإيڤانجليكيين الأمريكيين الآن تحوّلوا إلى الما قبل ألفية ذات الأفكار الأكثر انتحاءً نحو التشاؤم، وإلى العقائد القائلة بالتدبير الإلهى لشئون العالم مرتبطة بالكتاب المقدس بطبيعته واسعة الانتشار ونعنى بها طبعة شارلز شوفيلد Schofield وتعاليم القائل بالأفكار «الخمسينية ـ Pentecostal» إدوارد إرڤنج والإخوة چون نيلسون داربى John Nelson Darby.

***

صعود ما قبل الألفية

The Rise of Premillennalism

أسَّس الواعظ الإنجليزى چون داربى «إخوان پلايموث» لأنه كان منتقداً لفساد الدين «المؤسسى» فى كنيسة انجلترا. وكان قصده هو تأسيس كنيسة جديدة على نسق مبادئ مسيحية العهد الجديد كما فهمها هو. وهاجر كثيرون من جماعة أخوة پلايموث إلى الولايات المتحدة هجرة نهائية، وأخيراً هاجر داربى نفسه (٣٨). وفق ما ذكره داربى، هناك سبعة تدبيرات إلهية فى التاريخ البشرى؛ التدبير الأوّل هو جنّة عَدْن، والتدبير الأخير هو حُكم القدّيسين الألفى، مشيراً بذلك إلى سفر الرؤيا ٢٠ : ١-٧(*) والذى يقع بالنسبة لداربى وأتباعه فى المستقبل بعد المجيء الثانى للمسيح. ويعتقد المؤمنون بالفكر الما قبل ألفى أنهم يعيشون فى قرب نهاية التدبير الإلهى السّادس، والذى يسبق مباشرة هذه الألفية (التى يحكم فيها المسيح) وعلى وفق قراءتهم لسفر الرؤيا، فإن الفترة السابقة مباشرة لألفية السّلام هى وقت «المحنة أو الضيقة الكبرى ـ Great

(*) ثم رأيت ملاكًا نازلاً من السماء، وبيده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة قيد بها التنين، أى الحية القديمة، وهو إبليس أو الشيطان، وسجنه مدة ألف سنة، وطرحه فى الهاوية وأغلقها عليه، وختمها، حتى يكف عن تضليل الأمم، إلى أن تنقضى الألف سنة. ولكن لابد من إطلاقه بعد ذلك لمدة قصيرة.
ثم رأيت عروضا منح الجالسون عليها حق القضاء. ورأيت نفوس الذين قتلوا فى سبيل الشهادة ليسوع وفى سبيل كلمة الله، والذين رفضوا أن يسجدوا للوحش ولتمثاله، والذين رفضوا علامته على أيديهم وجباههم، وقد عادوا إلى الحياة، وملكوا مع المسيح ألف سنة. هذه هى القيامة الأولى. أما بقية الأموات فلا يعودون إلى الحياة حتى تنقضى الألف سنة. ما أسعد وأقدس من كان لهم نصيب فى القيامة الأولى! لن يكون للموت الثانى سلطة عليهم، بل يكونون كهنة لله والمسيح، ويملكون معه ألف سنة. فحين تنقضى الألف سنة، يطلق الشيطان من سجنه. رؤيا يوحنا ـ ٢٠ : ١ ـ ٧.

Tribulation»حيث تزيد الخطايا والشرور، وتزيد الحروب وأعمال العنف، وتزيد الكوارث الطبيعية، وينحرف الناس عن الإيمان الحقيقى، وتنشب معركة بين بقايا المسيحيين المؤمنين والغالبية المطيعة لأمير الدنيا والمعادى للمسيح «عدو المسيح ـ Antichrist».

وعلى وفق ما ذكره داربى، فإن ممالك الدنيا لا يمكنها أن تتحد مع «مملكة الرب ـ Kingdom of Christ» إنها ـ أى هذه الممالك ـ بعيدة منعزلة عن خطّة الرب، بُعد إسرائيل عن الكنيسة المسيحية. فإسرائيل فى التدبيرات االإلهية الخمسة الأولى كانت ـ مثلها فى ذلك مثل ممالك الدنيا ـ قد رفضت ربوبيّة المسيح. أما فى التدبير الإلهى السادس ـ الذى يمتد من صعود المسيح إلى مجيئه الثانى ـ فيخص أولئك الذين يعترفون بعيسى كمسيح وملك سماوى (مقدّس)، أولئك هم الذين يعيشون فى ظل هذا التدبير الإلهى الجديد لم يعودوا مواطنين أرضيين (دنيويين) وإنما هم مواطنو السماء؛ لأن «الكنيسة كيان سماوى خالص فى دعوتها وفى علاقتها بالمسيح، فهى ـ أى الكنيسة ـ لا تشكل جزءًا فى مسيرة الأحداث على هذه الأرض فى هذه المرحلة»(٣٩).

وعلى كل حال يبقى العالم تحت حكم «أمير هذا العالم» الشيطان، لكن المستقبل يكون لأبناء مملكة الرّب. أما الآن فالعالمان فى المعركة الأخيرة لخلاص الأرواح، ومهمة الكنيسة المقدسة هى إنقاذ الأرواح، ودعوة الرجال والنساء لفصل أنفسهم عن مجتمع الخطيئة؛ ليكونوا مواطنين سماويين استعدادا لعودة المسيح، وحلول فجر التدبير الإلهى السابع.

النظرية التدبيرية الإلهية الآنف ذكرها والتى روّج لها داربى، دعا إليها المبشرون الإيڤانجليكيون الأمريكيون بحماس، فهؤلاء المبشرون ـ منذ الحرب الأهلية حتى الكساد العظيم ـ رأوا المزيد من البراهين الدالة على أنّ ألفية السّلام أبعد ـ مما كانوا يتصورون ـ عن التحقيق، فبدلا من أن مسيرة البشرية متقدمة صوب المملكة التى تنبأ بها جوناثان إدواردز، فإن القائلين بالتدبيرية الإلهية رأوا طوفانًا متفاقمًا من المصائب والجوائح والمآسى بما فى ذلك النكبات الزراعية، والفساد السياسى، والرأسمالية الاحتكارية، ورجال الصناعة الجشعين، واللاهوت الليبرالى، والصور الداعرة والفنون الإباحية، وازدياد الفساد فى المدن، وزيادة الهجرة والاضطرابات التى تسببها

اتحادات العمال، وظهور الشيوعية، والحرب العالمية، بل وحتى غرق السفينة العملاقة تيتانك[٤٠]. وقد أوجز الواعظ الإيڤانجليكى دويت إل. مودى ذو التأثير حالة المصائب قائلاً: «أرى العالم بوصفه سفينة محطّمة تغرق، وأعطانى الله قارب نجاة وقال لى: يا مودى أنقذ كلّ من تستطيع إنقاذه فالله سيأتى ليُدين هذا العالم ويحرقه، لكن أبناء الله ليسوا تابعين لهذا العالم، فهم ليسوا من أهله رغم وجودهم فيه. إنهم كسفينة فى الماء. هذا العالم يسير حثيثًا نحو الظُّلمة، لذا فخرابه بات وشيكا، إن كان لك أى أصدقاء فى هذه السفينة المحطّمة الغارقة، فمن الأفضل ألا تُضيع وقتا، هيَّا أنقذهم»[٤١].

مودى يشير هنا إلى رؤيته الخاصة للتدبيرية. إنه يأخذ بفكرة «الاختطاف ـ rapture» حيث يعتقد القائلون بالما قبل ألفية أنَّ المؤمنين سيخطفون من الأرض، بينما يظل فيها الخطاة ليواجهوا محنة نهاية الزمان، ومعركة هرماجدون، وهى آخر المعارك. وفكرة «الاختطاف ـ rapture» مستقاة من سياق ما ورد فى رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكى (٤: ١٦-١٧) التى يقول فيها بولس «لأن الرب نفسه سينزل من السماء حالما يدوى أمر بالتجمع وينادى رئيس ملائكة ويبوق فى بوق إلهى، عندئذ يقوم الأموات فى المسيح أولاً. ثم إننا نحن الباقين أحياء نختطف جميعا فى السُّحب لملاقاة الرّب فى الهواء، وهكذا نكون كلّ حين مع الرّب، لهذا عزّوا بعضكم بعضا بهذا الكلام».

تعاليم ما قبل الألفية لها مضامين واضحة للدور المسيحى فى العالم. فالما قبل ألفى «يحتقر كل الجهود المبذولة باسم الدين لتصحيح أمراض المجتمع»؛ لأنه «حين نبدأ أى برنامج إصلاحى، أو لوضع الكنيسة على القمة، سيعوق الهدف الإلهى وسيؤخّر قدوم المسيح الثانى»[٤٢] وعلى وفق ما ذكره الواعظ التدبيرى لويس شيفر فإن الإصلاح الاجتماعى كان نتيجة المسيحية الليبرالية، وهى تضلّل حقيقة إنجيل يسوع المسيح: «الشيطان ـ كالأم المحبّة ـ إنه ينحنى نحو من يحمله بين ذراعيه، يَنْفُس فى أفواههم البلسم المهدّئ ـ بلسم أبوة الله ـ لكل البشر، وأخوّة البشر، مقنعًا إياهم أنهم جديرون أمام الله على أساس طبيعتهم الأخلاقية وتكوينهم الفيزيقى، مغذّيا ميلهم لمحاكاة الإيمان الحقيقى بالأعمال الإنسانية الجليلة، وبمشاريع إصلاح الأفراد وتحسين النظام الاجتماعى»[٤٣].

المتبنون ما قبل الألفية، بدلا من أن يحاولوا تحسين أحوال العالم الكئيبة نجدهم قد تبنوا مشروع تنصير العالم استجابة لتعليمات المسيح الأخيرة لحواريِّه، والقاضية بضرورة التبشير بالإنجيل «فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى» (إنجيل متى ٢٤/ ١٤).

انخرط ـ بعمق ـ القائلون بالتدبيرية الإلهية فى ثقافة يائسة، تلك الثقافة التى ظهرت بين الملايين الذين عاشوا بعد الشرور المرعبة للحرب الأهلية ومن ثم عانوا ـ غالبًا ـ من الظروف المعيشية القاسية فى أحياء الفقراء ومن معاملتهم كرقيق يتلقَّى أجرًا أثناء الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشرو الحرب العالمية والكساد الاقتصادى الكبير فى بواكير القرن العشرين، فكما قال سكوفيلد فى سنة ١٩١٨ :

«ثمة شىء غير قابل للموت فى قلب الإنسانية . . . إنه الاعتقاد بأنه لا بد أن يتوقع البشر على هذه الأرض حياة مشتركة منضبطة، ليست قصْرًا على المحظوظين والأقوياء، وإنما للجميع . . الجميع الذين سيكونون أثرياء فى الحقيقة والعدالة والقوة والحب . . . فالجنس البشرى هو جنس واحد قبل كلّ شىء، وإنه لمن المنطق أن يظل الأمل فى العصر الذهبى حيا فى العقل الإنسانى العام»(٤٤).

وعودة المسيح والحكم الذى يسوده السلام لمدة ألف عام، هو المناسبة الوحيدة للأمل المسيحى، لكن كلما اقتربت هذه الأحداث (عودة المسيح والعصر الألفى) ستصبح الكنيسة مرتدَّة (عن الإيمان الصحيح) وسينغمس العالم فى الفساد الأخلاقى والفوضى. بل إنَّ بعض المعتقدين فى التدبيرية الإلهية dispensionalists أبدوا فرحا وسرورًا للأحداث المرعبة التى جرت فى بواكير القرن العشرين، فقد ترنَّم روبن تورى ـ فى معهد الكتاب المقدس فى لوس أنچيلوس فى سنة ١٩١٤م «كلما زاد الليلُ ظلمة، كلما تألق قلبى بالنور»(٤٥).

* * *

التدبيرية الإلهية الصهيونية

وبينما نرى القائلين بالتدبيرية الإلهية لا يجدون أى دور لبريطانيا أو أمريكا لتحسين ظروف نهاية الزمان، المتفاقمة فى السوء بالنسبة للمواطنين فى كليهما، فإن لهما دورًا مهمًا فى تقريب نهاية الزمان بأعمالهما المتعلقة بفلسطين واليهود. فقد كان الملمح الرئيسى فى التدبيرية الإلهية فى فكر داربى هو مكان اليهود فى خطة الله

لنهاية التاريخ: فاليهود رفضوا المسيح، وعلى هذا فقد نحّاهم الله عن وصفهم كشعب مختار، وأحل الكنيسة محل إسرائيل. لكن قبل الاختطاف يلعب اليهود دورًا حاسما فى تحقيق نبوءة نهاية الزمان التى أشار إليها الكتاب المقدّس بعودتهم إلى فلسطين واستقرارهم مرّة أخرى فى الأرض التوراتية، وإعادتهم بناء القدس ـ خاصة الهيكل الثالث فى الموضع الذى يشغله المسجد الأقصى وقبّة الصخرة. ومن المفترض أنّ إسرائيل الجديدة تواجه مقاومة عنيفة وتخوض حروبًا قاسية، لكن من يتبقى من اليهود سيعترف ـ أخيرًا ـ بعيسى باعتباره المسيح الحقيقى، ومن ثم يرحبون به فى مجيئه الثانى.

فى نطاق هذا الاعتقاد بخطّة إلهية بإعادة إنشاء إسرائيل قبل نهاية المرحلة التاريخية الحالية، راح القائلون بالتدبيرية الإلهية يمارسون ضغطا على السياسة الخارجية لكل من بريطانيا وأمريكا، وعلى الأحداث فى الشرق الأوسط بدءا من سنة ١٩١٧م حتى يومنا هذا. فقد حاجج البريطانى الإيفانجليكى ـ إيرل شافتسبرى Earl of Shaftsebury ـ فى سنة ١٨٣٩م على أنّ اليهود لا بد أن يعودوا إلى فلسطين قبل المجىء الثانى للمسيح، وفى ظل تأثيره أقامت الحكومة البريطانية قنصلية فى القدس، وكان القُنصل المعيَّن إيفانجيليكيا، كان هو أوّل من عزّز فكرة فرض الحماية البريطانية على فلسطين للدفاع عن ١٠,٠٠٠ ـ عشرة آلاف ـ يهودى كانوا يعيشون فيها بالفعل، وليكون لبريطانيا قاعدة استراتيجية فى قلب الإمبراطورية العثمانية[٤٦].

وقد رأى القائلون بالتدبيرية الإلهية فى سقوط القدس فى سنة ١٩١٧[*]، وفى انهيار الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى فرصةً ذهبيةً لتأسيس محمية بريطانية فى فلسطين، والتى كانت قد دُشِّنت بوعد بلفور فى سنة ١٩١٧م[٤٧]. وفى الوقت نفسه راح المسيحيون القائلون بالتدبيرية الإلهية يبذلون جهودًا تبشيرية بين اليهود فى بريطانيا وأمريكا.

فالمسيحيون القائلون بالتدبيرية الإلهية هم الأسلاف الأساسيون للصهيونية. فقد بدأت حركة « محبة صهيون ـ Love of zion » ردّا على تنامى موجة معاداة السَّامية فى روسيا وألمانيا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر (١٨٨٠-١٨٩٠) وبتأثير هذه الحركة

(*) المقصود سقوطها فى أيدى القوات الإنجليزية المسيحية، بعد أن كانت تحت أيدى المسلمين، سواء كانوا أتراكًا أم عربًا ـ المترجم.

انتقل ٢٥,٠٠٠ يهودى إلى فلسطين ليعملوا فى مجال الزراعة فى الفترة من ١٨٨٢م إلى ١٩٠٣م . وفى سنة ١٨٩٥م نشر تيودور هرتزل كتابه الشهير «الدولة اليهودية ـ Der Judenstaat» الذى فصّل فيه لأوّل مرّة القضية الصهيونية بإنشاء وطن يهودى جديد . وفى بداية الأمر لم يحدّد هرتزل مكان هذا الوطن اليهودى، وإنما عزف على نغمة إيجاد دولة لليهود الذين لا دولة لهم، لكن فى المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧م أكدّ على أنّ فلسطين هى المكان المناسب ليكون وطنًا لليهود[٤٨] . وكان اليهود الأمريكيون أقل اقتناعًا من نظرائهم الأوروبيين بأن فلسطين يجب أن تكون هى وطن اليهود، فقد كانوا معتقدين بشدّة بفكرة أن أمريكا ـ العالم الجديد ـ هى نفسها صهيون الجديد . وعلى أية حال، فبتأثير المسيحيين القائلين بالما قبل ألفية، انجذبوا بالتدريج للقضية الصهيونية . فكما حاجج وليم إى . بلاكستون الأمريكى البارز فى التدبيرية الإلهية :

«لماذا لا نعيد فلسطين مرة أخرى لليهود؟ فوفق توزيع الله للأمم، فإن فلسطين هى وطنهم الذى طردوا منه بالقوة . . . دعونا الآن نعيدهم إلى الأرض التى سلبهم إياها بقسوة أجدادنا الرومان»[٤٩] .

وقد مجّد الأمريكيون الصهيونيون ـ فى وقت لاحق ـ بلاكستون باعتباره «أبو الصهيونية» واعترف الإسرائيليون أنفسهم بدوره فى تهيئة المناخ السياسى فى أمريكا للتعاطف مع قضية الدولة الإسرائيلية، فأطلقوا اسمه على حديقة الغابة الوطنية[٥٠] .

لقد كان إنشاء الدولة اليهودية فى سنة ١٩٤٨م حدثا بارزا بالنسبة للمسيحيين القائلين بالتدبيرية الإلهية؛ لأنه بشر بالعودة القريبة للمسيح . وكانت حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م حدثا يساوى فى أهميته إنشاء دولة إسرائيل؛ لأن إسرائيل ـ بسبب هذه الحرب ـ احتلت القدس مرة أخرى خاصة جبل الهيكل الذى سيبنى فوقه الهيكل الثالث قبل نهاية الزمان . هذا الحدث تضمنه كتاب هال لندساى الذى يحمل عنوان The Late Great Planet[*] **والذى أدى عرضه المبسط لأفكار التدبيرية الإلهية حول الأحداث الجارية فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى ازدياد عدد القائلين بالتدبيرية الإلهية زيادة كبيرة جدًا، فتحولت من عقيدة للأقلية فى الكنائس الإيڤانجليكية الأكثر محافظة وفى كليات دراسة الكتاب المقدس إلى عقيدة الأغلبية من**

(*) كان من أكثر الكتب مبيعًا، وتجاوزت مبيعاته ٤٠ مليون نسخة ـ المترجم .

المسيحيين الأمريكيين الإيڤانجليكيين إذ آمن بها الملايين، ذلك أن كتاب لندساى تناول ميلاد دولة إسرائيل وميلاد التجمع الاقتصادى الأوروبى والحرب الباردة مع روسيا، وإنشاء العراق العلمانى المستقل على أرض بابل التوراتية (كما حدّدتها التوراة).

لم يضف لندساى سوى القليل إلى نبوءات القائلين بالتدبيرية الإلهية ممن سبقوه، لكنه قدَّم نبوءاتهم فى شكل يفهمه الجمهور، مقدما نفسه بوصفه نبى الناس الذى يقدم «أملاً من أجل المستقبل» فى أزمنة تعُجُّ بالاضطراب يبدو فيها المستقبل نفسه ومصير الكوكب وما عليه من بشر مهددا. والكتاب المقدس فيما يرى لندساى هو المخزن الأساسى للحكمة النبوئية التى بها يمكن تأويل الأيام الأخيرة لكوكب الأرض، والتى يعتقد أنها قد بدأت بالفعل، لأن الكتاب المقدس يتنبأ بأن نهاية الزمان يمكن أن يُقال بأنها تحديدا قد بدأت بعودة اليهود إلى أرض إسرائيل بعد آلاف السنين من الشّتات. فاليهود هُم أكثر العلامات أهمية لهذا الجيل [٥١]. ويربط لندساى تفسيره هذا بالمبشرين البيوريتانز الأمريكيين من أمثال إنكريز ماثر والد كوتون ماثر الذى تنبأ فى كتابه سر خلاص إسرائيل The Mystery of Israel's Salvation بعودة اليهود إلى فلسطين، قبل عودتهم فعلا بمئات السنين[٥٢]. لقد كتب لندساى عقب الاحتلال الإسرائيلى للقدس الشرقية فى سنة ١٩٦٧م مباشرة، ذاكراً أنّه لم يبق أمام إسرائيل الآن (١٩٦٧م) سوى أن تُعيد بناء الهيكل القديم فى موقعه التاريخى لإعادة إسرائيل كما وردت فى التوراة. واقتبس لندساى من كتاب المؤرخ الإسرائيلى إسرائيل إلداد الذى أجاب عندما سئل عن المدة التى سيستغرقها اليهود لإعادة بناء الهيكل بعد استعادتهم للقدس القديمة قائلاً: «من الوقت الذى استولى فيه الملك داود على القدس إلى وقت بناء الملك سليمان للهيكل، أى مدّة جيل واحد. وعلى هذا سيكون هذا ونحن على قيد الحياة[٥٣]. وكانت زيارة أريل شارون المثيرة للجدل للمسجد الأقصى على جبل الهيكل فى سنة ٢٠٠١م، حيث بدا يُعاين الموقع الذى كان فيه الهيكل فيما مضى، والذى سيعاد بناؤه من جديد، وقد فجّر هذا العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، فأصبحت أكثر عنفًا بشكل لم يسبق له مثيل طوال الخمسين سنة الماضية.

لقد وُضع الفلسطينيون موضع الحسبان فى خطط الصهيونية التى أعلن عنها منذ زمن طويل، وكما رسمها لندساى وآخرون.

وفق ما ذكره ليندساى، حيث نجده هنا يتبع مرة أخرى التأويلات التى يأخذ بها القائلون بالتدبير الإلهى ـ الذى أصبح فكرا دينيا راسخا ـ إنها رؤيا النبى حزقيال الذى تنبأ بوضوح بأحداث نهاية الزمان. «فالأعوام الأخيرة» هى الزمن الذى ستعود فيه إسرائيل إلى الأرض: يحدث هذا بعد فترة طويلة جدا تصبح فيه أرض إسرائيل مهجورة بائسة بسبب الحرب والكوارث البيئية، سيعود اليهود قادمين من أمم كثيرة قاطعين الأرض، وراحوا يخوضون تجربة الإحياء الروحى (الانبعاث الروحى) وأخيرا ستثير عودتهم واستقرارهم من جديد وانبعاثهم الروحى عداوة شديدة من أمم أخرى، وتصل هذه ا لعداوة ذروتها فى معركة هرماجدون. ويحاول لندساى أيضًا أن يُدلل على قراءته النبوئية للتاريخ الجارى بإشارات إلى أقوال يسوع وبولس وسفر الرؤيا.

ويفهم كثيرون من الباحثين المعاصرين أقوال يسوع النبوئية المتناظرة فى أناجيل: متى ومرقس ولوقا، باعتبارها تشير إلى حروب اليهود مع روما سنة ٧٠م، تلك الحروب التى جرى فيها سلب القدس وهدم الهيكل. ويبدو الأمر هنا حقيقة لا يتطرق إليها إلا القليل من الشك، طالما أنّ الأناجيل كُتبت بعد هذه الأحداث، فهذه الأحداث هى حقيقة ما كان كتّاب الأناجيل يشيرون إليها. فالمسيح نفسه لم يتنبأ فقط بأن الهيكل سيتحطم بحيث لا يبقى فيه حجر فوق حجر مما يُسبب إزعاجًا بالغًا لرجال الدين واليهود، وللسلطات السياسية التى تحكم من الهيكل فى ظل سيادة روما، وإنما تنبأ أيضًا بأن هذه الأحداث ـ سلب القدس وتدمير الهيكل ـ ستتم فى حياة أتباعه «الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله» [مرقس ١٣/ ٣٠]. وعلى أية حال فإن لندساى ـ مثله فى ذلك مثل داربى وسكوفيلد ـ قد فهم هذه الأقوال النبوئية الواردة فى الأناجيل السالف ذكرها باعتبارها تشير إلى أحداث ستتحقق بعد فترة طويلة من زمن المسيح وحوارييه، إنهم يرون أحداث زمننا هذا هى المقصودة بالنبوءة، عندما سيُجبَر يهود يهودا Judea ـ بسبب الصراع ـ إلى اللجوء للجبال، التى هى الموضع المحدد لكثير من المستوطنين الصهيونيين غير الشرعيين، وعندما سيعود حفظ السبت التقليدى إلى إسرائيل بعودة اليهود. فالصراع فى فلسطين ـ الذى تنبأ به يسوع ـ يقول عنه الآخذون بالتدبيرية الإلهية إنه سيحدث فى «المملكة الشمالية» التى حددها حزقيال ويوئيل ودانيال، وسيكون مع روسيا، باعتبار أن روسيا ـ وفق هذا التفسير ستكون

على رأس تحالف يضم معظم الدول العربية سيشن حربًا ضد إسرائيل، وقد شنوا بالفعل هذه الحرب ضد إسرائيل فى سنة ١٩٦٧م. وينظر لندساى إلى مصر وروسيا فى قراءاته للنبوءات الواردة فى الكتاب المقدس بوصفهما حجر الزاوية فى الحرب ضد إسرائيل. ومن هنا فلا بد من أن تُساق روسيا للدمار والخراب قبل أن تحين النهاية، ومن ثم يأتى الدور على مصر التى ستقود المواجهة ضد إسرائيل وستُهزم، إذ سيقهرها ملك أجنبى شرس يحكمها، وهو على وفق ما يقول لندساى «عدو المسيح ـ Antichrist»[٥٥].

ولأن لندساى لم يكن قانعًا بتخطيط بنية الأحداث فى الشرق الأوسط فقط، إذ وجدناه يرغب فى إدراج أمم أخرى كثيرة وأحداث عالمية سياسيّة فى قصته النبوئية. فجعل الصين هى «الخطر الأصفر» بوصفها الجيش العظيم الذى سيظهر فيما وراء الفرات [سفر الرؤيا ٩/ ٦][*] ليبيد ثلث سكان العالم. وضمَّن لندساى أيضًا تأسيس السوق الأوروبية المشتركة التى أصبحت الآن الاتحاد الأوروبى: «نحن نعتقد أن السوق الأوروبية المشتركة والاتجاه إلى توحيد أوروبا، ربما يكون أيضًا بداية للكونفدرالية الأممية المكوّنة من عشر أمم، والتى تنبأ بها دانيال كما تنبأ بها يوحنا فى سفر الرؤيا.»[٥٦]. فالمرحلة الأخيرة من توحد أوروبا اقتصاديا وتوحيد عملتها سوف ينتج عنها إنشاء «إمبراطورية رومانية» تحيا من جديد، وسيكون زعيم هذه الإمبراطورية هو «ديكتاتور المستقبل وسيكون هذا الزعيم هو «عدو المسيح ـ Antichrist» نفسه ولا بد أن يسود حكمه المُظْلم الأرض قبل المعركة الأخيرة هرماجدون). وسيُعطى هذا الزعيم سلطان السيطرة على اقتصاديات العالم وعلى كل من يضع «علامة الوحش» وشما مميزا له. وكما يرى لندساى «ففى مجتمعنا الذى يحكمه الكمبيوتر، حيث كل واحد منا مرقَّم (له رقم) من ميلاده حتى وفاته، يبدو معقولا أنّ يومًا سيأتى فى المستقبل القريب ستتوحد فيه الأرقام ليكون لكل منا رقم واحد فقط ينضوى تحته كل نشاطه وأمواله وديونه ومعاملاته»[٥٧]. وسيصحب الاقتصاد العالمى الجديد والحكومة العالمية عبادة

(*) «وعندما نفخ الملاك السادس فى بوقه، سمعت صوتًا آتيًا من القرون الأربعة لمذبح الذهب الموجود أمام الله، يقول للملاك السادس الذى يحمل البوق: أطلق الملائكة الأربعة المقيدين عند نهر الفرات الكبير. وكان هؤلاء الملائكة الأربعة مجهزين استعدادًا لهذه الساعة واليوم والشهر والسنة، فأطلقوا ليقتلوا ثلث البشر وسمعت أن جيشهم يبلغ مائتى مليون محارب». الرؤيا ٩: ١٣ ـ ١٦.

عَوْلمية جديدة، فيتحول الناس فى العالم كله إلى عبادة الأوثان أو الآلهة الزائفة ويجد لندساى ـ مرَّة أخرى ـ دليلاً على أن هذا يحدث بالفعل فى أن كثيرين من أتباعه الأمريكيين قد تحوّلوا نحو علم التنجيم ـ الأسترولوچيا ـ والعبادات المختلفة المتأثرة بالعبادات الشرقية. لقد فسد الحلم الأمريكى منذ زمن ـ فيما يرى لندساى ـ فأمريكا التى تخيّلها القائلون بالفكر الما بعد ألفى «مدينة فوق تل» قد حلت محلَّها أمريكا الآثمة الوثنية التى يبتعد أهلها أكثر فأكثر عن العقيدة المسيحية، ويتجهون أكثر فأكثر نحو الظُّلمة.

وستحدث نهاية كل هذه الأحداث المظلمة فى عملية ذات مرحلتين:

أولا: أولئك الذين يبقون مخلصين ليسوع المسيح كرب حقيقى للتاريخ البشرى سيُخطفون إلى السماء قبل سبع سنوات من العد التنازلى لمعركة هرماجدون. وفى تقاليد الاختطاف الذى يسرده لندساى، سيختفى الأفراد من أماكن عملهم أو أسرّتهم أو سياراتهم فى اللحظة المحدّدة، عندما يدعو الرّب كل المختارين ليكونوا معه فى السماء؛ لينجوا من «الضيقة الكبرى ـ the Great Tribulation» فى السنوات السبع الأخيرة.

ثانيا: سيقع العالم ضحية للحريق الهائل ـ حريق هرماجدون أو «الحرب العالمية الثالثة» والتى ستحدث نتيجة تصاعد الأزمة فى الشرق الأوسط.

لم يرد ذكر هرماجدون إلاّ مرَّة واحدة فى الكتاب المقدس وذلك فى سفر الرؤيا [١٦/١٦]، ويبدو أنها تشير إلى جبل مجدو Mount of Megiddo فى سهل چزريل Jezreel فى وسط فلسطين. وسيكون ميدان المعركة واسعًا لدرجة أنه سيغطى مئات الأميال المربعة شمال القدس وجنوبها وسترتفع بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألجمة الخيول(*). ولن ينتهى الصراع هناك: «فستدّمر كلّ مدن الأمم» بفعل الأسلحة النووية والتى سوف تحرق الأرض و«تمزقها إربا وفق نبوءة الكتاب المقدس. ولن يعود المسيح إلى الأرض إلاّ إذا بدت وكأن الحياة فيها ستنعدم، عندئذ يعود لإنقاذ من تبقى[٥٨] وعندئذ يبدأ حكم القديسين فى الألف سنة الموعودة.

(*) «... فانبثق منها الدم وجرى أنهارًا حتى إلى لجم الخيل، مسافة ألف وست مائة غلوة [نحو ٣٢٠ كم]» سفر الرؤيا ١٤: ٢٠.

وبالنسبة لمعظم الأوروبيين وكثير من الأمريكيين سيكون «تفسير» لندساى للكتاب المقدس وللأحداث السياسية المعاصرة لنا تطرفًا بعيد الاحتمال وخياليًا. **وعلى أية حال فقد بيع من كتابه (the Late Great Planet Farth) أكثر من أربعين مليون نسخة وأصبح واحدًا من أكثر النصوص الدينية تأثيرًا فى أمريكا الآن. وقد قرأه رونالد ريجان وقرأ الأحداث فى ضوئه، كما يدل على هذا تفسيره فى سنة ١٩٧١م لضرب القذّافى فى ليبيا «هذا علامة على أن يوم هرماجدون لم يعد بعيدا... كل شىء أصبح فى مكانه. لا يمكن أن يطول الأمر الآن. يقول حزقيال: إن النار والكبريت ستمطر على أعداء شعب الله. لا بد أن هذا يعنى أن الأسلحة النووية ستدمرهم»**[٥٩].

تحديد القائلين بالتدبيرية الإلهية لروسيا باعتبارها عاملاً محوريًا فى نهاية الأزمنة حمَّس إدارة ريجان للانخراط الكامل فى الحرب الباردة، انخراطًا فاق من سبقوه. ولم يكن ريجان وحده فى هذا. **فأكثر من ثلث الأمريكيين اعتقدوا فى ذلك الوقت فى حتمية الحريق النووى، مُعتبرينه جزءًا من خطة إلهية لنهاية التاريخ، خطة لا يمكن لأى أمة أن تمنع تنفيذها، واعتقد ربع الأمريكيين أيضًا أن الله سينقذهم من هذا الحريق باختطافهم فى الهواء**[٦٠].

كان أحد الناصحين الدينيين المخلصين لريجان هو چيمس روبيسون الداعية الإيڤانجليكى التليفزيونى المؤمن بالفكر ما قبل الألفى، والذى صلى فى وقت لاحق مع چورچ دبليو بوش فى التليفزيون الوطنى خلال معركته الانتخابية فى سنة ١٩٩٩م. **وقد أعلن چيمس روبيسون أن الناشطين للدعوة للسّلام هم حقا هراطقة لأن أية تعاليم تدعو للسلام قبل عودة المسيح إنما هى هرطقة... إنها ضد كلمة الله against the World of God إنها ضدّ المسيح**[٦١]. وعلى النحو نفسه كان الناشطون لحماية البيئة يعتبرون شيوعيين هراطقة من وجهة نظر أعضاء فى إدارة ريجان. وأشهد السكرتير الأول للشئون الداخلية لرونالد ريجان لجنة الكونجرس على اعتقاده بأن عودة المسيح باتت وشيكة. وكان هذا السكرتير الأول، وهو چيمس وات من المسيحيين المحافظين من الطائفة الخمسينية. وقد أثر هذا الاعتقاد ـ بوضوح ـ فى موقفه وموقف الرئيس ريجان المعارض لأجندة المحافظة على البيئة، وبناء عليه جرى إلغاء ترتيبات كثيرة

للمحافظة على البيئة [٦٢](*). وتشير ارتباطات بوش بالقائلين بالتدبيرية الإلهية مثل روبيسون وفرانكلين جراهام إلى أنه هو نفسه من القائلين بالتدبيرية الإلهية، رغم أن مستشاريه منعوا بشدّة أية إشارة إلى مثل هذه المعتقدات فى خطبه ولقاءاته. **لكن بوش يتبع ريجان فى كل خطوة خطاها، فيما يتعلق بالبيئة والسوق الحرة وإسرائيل، وقطع الدعم عن الخدمات العامة وخدمات الرفاهية الاجتماعية، والزيادة الهائلة فى حجم الإنفاق العسكرى، ومن المعروف أن ريجان كان من القائلين بالتدبيرية الإلهية**. وحتى غزو أمريكا للعراق واحتلاله فى سنة ٢٠٠٣، وإثارتها لحرب المقاومة داخل العراق، والأعمال الإرهابية ضد الأمم الغازية يُفسره القائلون بالتدبيرية الإلهية بأنه حَدَث نهاية الزمان، لأن سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى [٩/ ١٤-١٥] تحدّث عن فك «الأربعة الملائكة المقيدين عند النهر العظيم الفرات» والذين سيُدمّرون ثلث العالم[٦٣].

فالقيادة السياسية الأمريكية التى كانت فى وقت من الأوقات ترى نفسها صهيون الجديدة the new Zion قد تحوّلت الآن فى غالبها من الاتجاه الما بعد ألفى إلى الاتجاه الما قبل ألفى فى توجّهها نحو الأرض المقدسة، فبدلاً من إعادة بناء صهيون فى أمريكا، فإن أمريكا ـ الآن ـ ملتزمة ماليًا واستراتيجيًا بإعادة بناء صهيون بمعنى دولة إسرائيل. **ومرّة أخرى فإن بوش قد راح يسير بشكل ثابت فى هذا الطريق معلنًا فى الأيام الأولى من رئاسته أن الوقت قد حان لرفع الضغط عن إسرائيل، والسماح للإسرائيليين بالتعامل مع «القضية الفلسطينية» بما يرونه مناسبًا** [٦٤]. ومنذ هذا الإعلان راح الإسرائيليون يدمّرون الاقتصاد الفلسطينى الوليد، ويدمّرون أجهزة الأمن الفلسطينية ـ وإن كانت هذه الأجهزة فاسدة ـ كما راح الإسرائيليون يُنشئون جدارًا عازلاً محصنًا عبر مئات الأميال من الأراضى الفلسطينية عازلين به الفلسطينيين عن مزارعهم، وعن المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية. ونتج عن هذا زيادة البطالة الفلسطينية ونقص الغذاء، مما أدى إلى غضب ويأس غير مسبوقيْن، وظهرت موجة جديدة من العمليات الاستشهادية ضد الإسرائيليين.

(*) كذلك فإن چورج دبليو بوش غير مهتم بالحفاظ على البيئة، وخرجت الولايات المتحدة عن الإجماع الدولى، ولم توقع على اتفاقية كيونو ـ المترجم.

جعل الشرق الأوسط مواتيًا لإسرائيل عدوانية من جديد، هو أيضًا غرض محورى لإدارة بوش فى حربها وفى احتلالها للعراق. بل إن مصر والعراق وإيران وسوريا ولبنان وحتى المملكة العربية السعودية بعد تورطها فى هجمات ١١ سبتمبر(*) على الولايات المتحدة يقال إنها تهدد إسرائيل وأمريكا. من هذا المنظور **فإن تأسيس أمريكا لنظام اقتصادى من القطاع الخاص فى العراق، وديمقراطية سياسية خاضعة للمصالح المالية والاستراتيجية للمؤسسات الأمريكية، هو السبب الجوهرى لغزو واحتلال العراق. فبإخصاء (إضعاف) العراق وخصخصته وتحويله لديمقراطية وإعادة تشكيله وفق التخطيط الأمريكى، وجعله «مثلاً» للدول العربية الأخرى، ومع الوجود العسكرى الأمريكى فيه لمدّة طويلة، تهدف إدارة بوش من هذا كله أن تمكن إسرائيل من هزيمة الفلسطينيين، وتُمكّن على نحو خاص شارون وخلفائه من تحقيق حلمهم فى الاستقرار فى كل الأراضى التوراتية ـ الضفة الغربية والقدس الشرقية ـ وأخيرًا ليعيدوا بناء هيكل سليمان الكبير فى القدس. فعندما يتم بناء الهيكل، وليس قبل ذلك، تتوالى أحداث نهاية التاريخ التى يقال إن سفر الرؤيا قد تنبّأ بها. هذه السياسة الخارجية الصهيونية أبعد ما تكون عن التقدم فى طريق السلام فى الشرق الأوسط، فليس من نتيجة لها إلا إشعال غضب الإسلاميين ومن هنا تستمر، «الحرب على الإرهاب». لكن مع العلم بأن نهاية الأزمنة هى حقًا فترة حرب مستمرة، فليس هناك مدعاة للقلق؛ لأن الحريق النهائى فى الشرق الأوسط سيضع حدًا للتاريخ وينهيه على وفق النهاية الموعودة التى أشار إليها سفر الرؤيا.**

***

تقسيم أسلاب نهاية الزمن

تمثل التدبيرية الإلهية الما قبل ألفية قوّة ثقافية ودينية فى أمريكا الحديثة. ومن بين تأثيراتها الداخلية الغادرة تآكل العقيدة البيوريتانية المنصوص عليها فى الدستور، والقائلة: إنه ما دام كل الناس خلقهم الله، فإنهم جميعًا ـ كما يعلن الدستور ـ

(*) ليس مفهومًا الأساس الذى بنى عليه الكاتب تورط كل هذه الدول فى هجمات ١١ سبتمبر، إلا إذا كان فى ذلك يردد ما يقوله بعض من يدعون لصراع الحضارات أولهم أجندتهم الخاصة فى الدوائر السياسية الأنجلوساكسونية ـ المترجم.

متساوون. أما فى الرؤية التدبيرية الإلهية، فالناس ينقسمون إلى أشرار ومؤمنين حقيقيين. فمجتمع تأثر بعمق بهذا اللاهوت السيئ ـ لاهوت رفع الصالحين إلى السماء مع الرب. هو مجتمع مستعد أيديولوچيًا لأقصى درجات التفرقة بين المواطنين ـ أو أقصى درجات عدم المساواة ـ وأقصى درجات الانقسام الاجتماعى التى يمكن أن تنتج عن فرض رأسمالية السوق «الحرة» الليبرالية الجديدة، منذ إدارة ريجان فى ثمانينيات القرن العشرين. ويشترك مع التشاؤمية الملازمة للتدبيرية الإلهية المتشككة فى إمكانية تكوين مجتمع أكثر عدلاً، ذلك الحماس الدينى الذى تم به فرض الرأسمالية المتطرفة للشركات والمؤسسات التجارية على المجتمعات الأمريكية، ومن خلال وكالات المنظمات ذات الأساس الأمريكى، مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، فى مختلف بلاد العالم.

فى الرأسمالية واللامساواة المتطرفة، مزق العنف مدن أمريكا الكبيرة فى السنوات الثلاثين الأخيرة، بينما يتراجع الأثرياء بشكل متزايد إلى مجتمعاتهم المغلقة. وقد يتخيل القارئ أن الفقر فى أغنى الأمم فوق الأرض ليس هو الفقر بمفهومه التقليدى الذى نعرفه. لكن ٣٣ مليون أمريكى يعيشون دون مستوى خط الفقر الفيدرالى، وأكثر من ثمانية ملايين يعيشون فى منازل لا يجدون فيها ـ بشكل متتابع ـ وَجَباتهم لنقص دخولهم المالية[٦٥]. ووفيات الأطفال بين الفقراء الأمريكيين أعلى منها فى كثير من الدول «النامية». آلاف الأمريكيين الفقراء ماتوا فى سنة ٢٠٠٣م بسبب موجات الحر فى شيكاجو وغيرها من المدن الأمريكية لأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على أجهزة تكييف، بينما مات من البرد القارس فى الساحل الشرقى فى أوائل سنة ٢٠٠٤م كثيرون؛ لأنهم لم يكونوا قادرين على تدفئة مساكنهم. وليس زيادة انتشار الفقر نتيجة عنيدة للرأسمالية، وإنما نتيجة للقرارات السياسية لنخبة المؤسسات الأمريكية التى أظهر لها بوش أنه رئيس مخلص لها. لقد قطعت إدارة بوش الدَّعم فى مجالات شتى بدءًا من إعانة الفقراء إلى الرعاية الصحية وتدفئة المنازل والإسكان والطعام وبرامج التعليم ورعاية الطفولة[٦٦]. وبالنسبة لبوش ـ كما أشار هو نفسه فى خطابه فى بداية ولايته ـ إن الغنى ـ وليس الحكومة ـ هو الذى يجب عليه أن يعطف على الفقير. ومن هنا فقد خفّض الضرائب على الأغنياء مفترضًا أنه سيمكنهم من ذلك، ولم يكن بوش مبتدعًا فى أخذه من الفقير ليعطى الغنى. فالعكس هو الصحيح كما يشير پول كروجمان،

ففى الثلاثين سنة الماضية كانت التخفيضات فى الضرائب ـ بشكل مستمر ـ لصالح أغنى ١٪ من الأمريكيين بدخول متوسطها ٢٣٠,٠٠٠ دولار، بينما من بين هؤلاء الواحد فى المائة ٦٠٪ ذهبت لأغنى ١,٠٪ بدخول سنوية تزيد على ٧٩٠,٠٠٠ دولار أمريكى (٦٧). وبينما يزداد الفقير فقرًا راح الأغنياء ـ بشكل متزايد ـ يميلون إلى الابتعاد عن المحيط العام، ورراحوا ـ كما يرى روبرت كاپلان ـ يختارون أن يعيشوا حياتهم كلها بين محيط المؤسسات فى مجتمعات مغلقة حيث تخلّوا عن حقوقهم الشخصية من أجل ميزات الأمن الاقتصادى والبدنى اللذين لم يعد يمكن توفيرهما فى الجو العام الذى يزداد تمزّقًا. ودلَّل كاپلان أنه هو وأمريكيون آخرون راغبون فى التخلّى عن حقوقهم الفردية إن كان هذا يعنى حماية ما يملكون . . . »(٦٨).

أمَا وقد انسحب الأغنياء من المحيط العام، بالإضافة إلى الإنكار المروّع للحريات فى الممارسة اليومية لأمريكيين كثيرين أقل تمتعًا بالامتيازات الأخرى، وهناك أيضًا هيمنة النخبة من المؤسسات، والنخبة من المتبرعين على الآلية الديمقراطية فى أمريكا، فالزعم بأن هجمات ١١ سپتمبر كانت هجمات على الديمقراطية والحرية، هو حماقة فاسدة (٦٩) **فأمريكا أقل ديمقراطية من الپلوتوكراسيا (حكومة الأثرياء) عندما يمتلك ـ فقط ١٣,٠٠٠ من أغنى الأسر ثروة من الأراضى والأسهم والسّندات أكثر مما يمتلك الأفقر ٢٠ مليون، أى ٨٠٪ من إجمالى ثروة أمريكا الآن فى أيدى ١٠٪ من الشعب الأمريكى، وتزداد الفجوة، فالمدراء التنفيذيون يتقاضون ما يزيد ١٠٠٠ مرة عن موظفيهم(٧٠) . مثل هذا التفاوت المفْرط يُفسد الديمقراطية: فالأربعون فى المائة من الأمريكيين الذين لا يشاركون إلاّ فى أقل من ١٠٪ من الثروة الأمريكية مشغولون جداً فى الكفاح لتدبير معاشهم، إن انشغالهم بهذا أكثر بكثير من انشغالهم بالتصويت فى الانتخابات. إن الواحد منهم يبحث عن عملين إضافيّين أو ثلاثة بأجر ضئيل وبدون تأمين صحى أو معاش، وهؤلاء لا يجدون جدوى من التصويت فى الانتخابات لأى من الأحزاب بأطيافها السياسية المختلفة. ليس من مجتمع يستثنى هذا العدد الكبير من حقهم فى حياة جيدة، بينما يستمتع الآخرون بمستويات من الثروة لا تُصدّق، لا يمكن لمثل هذا المجتمع أن يزعم أنه مجتمع ديمقراطى أو حُر. وتآكل الديمقراطية الأمريكية ليس مقصورًا على اختفاء عدد كبير جدًا من المصوّتين من خلال الإحساس باستبعادهم من السياسات الأمريكية. ويمكننا أن نعلنها صريحة واضحة: إنهم مستثنون على كافة**

obeikan.com

المستويات، من انتخابات المدن إلى الانتخابات الرئاسية، فمؤسسات الأعمال واللوبى المموّل يوجهان السياسة العامة فكما يوضح تدْ هوندريتش «شخص واحد يعنى صوت واحد، أمر طيب» لكن «ما هى قاعدة التأثير على الحكومة بعد الانتخابات؟»[٧١].

التفاوت المتطرف الذى اجتاح الولايات المتحدة فى الثلاثين سنة الأخيرة قد تطوّر بفعل أيديولوچية السوق «الحرّة» التى جرت متابعتها بإخلاص وحماس من قبل الاقتصاديين الأمريكيين فى الجامعات الأمريكية والماليين فى وول ستريت، وأقطاب الإعلام فى نيويورك، وبفضل السياسيين الجمهوريين والديمقراطيين، وبفضل مؤسسات الأعمال الأمريكية التى احتوت الحزبين والانتخابات فى مجلسىْ الكونجرس والانتخابات الرئاسية ببلايين الدولارات. لكن هذه الأيديولوچيا ليست بالضبط نتيجة تغير فى توازن القوى بين رأس المال والعمل، أو حتى نتيجة تراجع نظرية عدم التدخل فى النشاط الاقتصادى Laissez Faire بين الاقتصاديين الأمريكيين. لقد جرى تطويرها على يد الإيڤانجليكيين ومعتنقى التدبيرية الإلـ . فاليمين المسيحى قد اعتنق السوق «الحرّة» باعتبارها مثالا للاقتصاد الحقيقى الذى يسير على هدى الكتاب المقدّس:

«نحن نؤكّد أنّ اقتصاد السوق الحرّة هو أقرب ما اتخذه الناس فى هذا العالم الساقط إلى الاقتصاد الذى رتبه الكتاب المقدس، ومن بين كل أنواع الاقتصاد التى عرفها الإنسان، هو الاقتصاد الأكثر تحقيقًا للحرية والعدل والرخاء لكل الشعوب. إننا ننكر أن التخطيط المركزى ـ وغير ذلك من التدخلات القسرية فى الاختيار الشخصى ـ يمكن أن تزيد إنتاجية المجتمع، وأن الحكومة المدنية لها سلطة فرض قيم الملكية، وأن الكتاب المقدس يفرض أى سعر «عادل»، إلاّ ما هو ناتج عن تفاعل العرض والطلب فى أسواق شعب حُر»[٧٢].

لقد راح الزعماء المسيحيون (الإيڤانجليكيون) المحافظون ـ متجاهلين الاعتراضات على الشرور المتزايدة الناجمة عن الانقسام الاجتماعى ـ يدافعون عن إنهاء كل المحاولات الرامية إلى ضبط أنشطة المؤسسات الخاصّة، ليس فقط إنهاء محاولات تحديد حد أدنى للأجور، وإنهاء الترتيبات الخاصة بحماية البيئة، وإنما أيضًا إنهاء برامج الرفاهية الاجتماعية والرعاية الصحية. وقد اعتبروا ضريبة المواريث وغيرها من

الضرائب التى توجّه حصيلتها للخدمات العامة والرفاهية الاجتماعية ضرائب غير مبررة وغير قائمة على أسس من الكتاب المقدس؛ لأنها تدخُّل فى حق الملكية وحق توريث الممتلكات. وهم يَدْعون إلى المزيد من نظم العدالة القائمة على العقاب للتعامل مع أولئك الذين يسرقون أكثر مما يعملون. **لكن بينما نجد اللصوص الصغار يمكن أن يُرسلوا للسجون ليعيشوا بقية حياتهم تحت سياسة «الضربات الثلاث»(*) لبعض الولايات المحافظة، نجد أن جريمة سرقة البلايين من خلال التلاعب المشبوه فى حسابات مؤسسة تمضى دون عقاب، إن كلا من چورچ دبليو بوش وديكْ تشينى، قد تعرضا للتحقيق لعدم الانضباط فى أعمالهما المالية، لكن أيا منهما لم يُحوّل للقضاء** (٧٣).

ويسجل إنجيل لوقا أنه عند بشارة المَلَك لمريم العذراء بأنّها سوف تلد المخلِّص (المسيح)، ابتهجت بكلمات الترنيمة (التسبيحية) التى تعد بقلب قيم سلطات الإمبراطورية الرومانية «أنزَل الأعزّاء من الكراسى ورفع المُتّضعين، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين»[لوقا ١ : ٥٢-٥٣]. لكن فى الإمبراطورية الأمريكية يرى كثيرون من (الإيڤانجليكيين) عقيدة اقتصادية يتمسكون بها مؤدّاها مباركة الغنى، أما الفقير فيُطرد فارغا. وهذا مناقض تماما لرسالة العهد الجديد.

فالمزاوجة بين الفرديّة المخصخصة والعقيدة الإيڤانجليكية القائلة بالتدبيرية الإلهية، خاصة مقولتها عن الاختطاف إلى السماء عند عودة المسيح من ناحية ومداهنة رأسمالية المؤسسات ـ المثيلة لإرنون ـ من ناحية أخرى، يُعد مثالا مأساويًا لقدرة الدين المحرّف، والأيديولوچية العلمانية على إفساد حياة الناس والعلاقات بينهم، وعلى تدمير المجتمعات. وجذور هذه المزاوجة الشّريرة وغير الأخلاقية تكمن فى فكر لوك حتى لو كان لوك نفسه لم يكن يتخيّل النتائج المدّمرة لفكرته. فطالما أنّ لوك قد جعل الأولوية للملكية قبل المجتمع، وللصناعة قبل البيئة، وقَلَب رأسًا على عقب فكرة الكتاب المقدس عن الخلق وعن الأرض بوصفها هبة من الله للناس جميعًا، فإنه يكون بذلك قد وضع أسسا للتقسيم المتطرف لغنائم العالم الجديد، وهو ما يمارسه الأمريكيون الآن. ومع فشل الدولة الأمريكية فى عشرينيات القرن العشرين ومنذ سبعينيات القرن نفسه لتحسين الآثار الاجتماعية والبيئية لرأسمالية مؤسسات الأعمال المنْفلتة، ليس هناك ما

(*) سنت بعض الولايات قانون يقضى بعقوبة السجن مدى الحياة بعد ثالث جريمة يدان فيها المتهم ـ المترجم.

يدعو للدهشة فى أن لاهوت لوك الفاسد لا بد أن يتزاوج مع النظرة الرؤيوية المتشائمة لكل من داربى وسكوفيلد ولندساى. فالتدبيرية الإلهية مثال تقليدى على دين مخدّر للشعب، أو بتعبير آخر دين يمثل أفيون الشعب. إنه يعمل كأيديولوچيا وكساتر دخانى يُضفيان الغموض ويُعمّيان على التقسيم الاجتماعى، وازدياد العنف فى شوارع أمريكا للهوس غير المنضبط للرأسمالية المتطرفة، منذ ريجان حتى بوش الابن.

وراء حوائط ورجال أمن مجمعات سكن أصحاب المؤسسات، ووراء چيتوهات سكنت الطبقة العاملة المهمشة فى مدن ما بعد الصناعة، يلجأ الأغنياء والفقراء ـ سواءً بسواء ـ إلى الحلم بأن يكونوا ضمن «المخطوفين إلى السماء» لملاقاة الرب، بدلاً من الحلم بمجتمع يتشاركون فيه الحرية والديمقراطية والثروة، ذلك الحلم الذى لم يتحقق.

***

obeikan.com